لقد حصرت الذكر في هكسلي لانهُ لازم للتوسع في موضوع بحثي . انا نعلم ما كان يشعر بهِ هكسلي نحو اون حينئذٍ لانهُ ذكر ذلك في كتاب ارسلهُ الى اختهِ قبل سفرهِ الى ليدس لحضور اجتماع المجمع اذ قال « أخذت طلائع نضال عنيف تبدو بيني وبين اون العظيم ولا اعلم هل يبلغ النضال مداهُ في ليدس ام لا » . ويسرني ان اجتماع ليدس مضى من غير احتدام النضال بين العالمين ولكنهُ ثابت في عقل هكسلي خطورة المسائل التي يدور عليها هذا النضال متى احتدمت ناره . وموضوع هذه المسائل يدور على « مقام الانسان بين الاحياء »

وبعد سنتين اجتمع المجمع في اكسفرد فاتاح اون لخصمهِ العنيد فرصة للهجوم عليهِ . لان اون عاد فاثبت في اكسفرد ما سبق فصرّح بهِ في ليدس من ان للانسان مقاماً خاصًّا بين الاحياء مبيّناً ان في دماغ الانسان ميزات لا اثر لها في ادمغة القردة الشبيهة بالانسان . فكان ردُّ هكسلي عليهِ موجزاً اذ صرّح ان رأي اون خطأ ووعد ان يثبت ذلك بادلة مفحمة وقد برَّ بوعدهِ . وتلا هذا الاجتماع اجتماع آخر جاء بعدهُ بيومين اذ تناظر اسقف اكسفرد والاستاذ هكسلي في موضوع النشوء فكانت الغلبة التامة فيهِ لهكسلي . فعكف من بعد ذلك على وضع كتاب اصدرهُ سنة ١٨٦٣ وجعل موضوعهُ « إدلة لاثبات مقام الانسان في الطبيعة » وقد اثبت فيهِ اثباتاً ينفي كل ريب لدينا ان مقامهُ في الطبقة العليا من الحيوانات الثديية المعروفة « بالبرغاياتس » وان القردة الشبيهة بالانسان اقرب الاحياء اليهِ

وقصدي الآن ان ابيّن لكم القواعد التي يقوم عليها إرأي الذائع بين العلماء في اصل الانسان . فلقد اتاحت لي خطبة السر وتشرد اون في ليدس من ٦٩ سنة ان اذكر مقام هكسلي في تكوين هذا الرأي وتأييدهِ والآن يجب ان احول نظري الى امر آخر لم يذكرهُ السر وتشرد الا الماماً ولكنهُ مهمّ الآن

***

قضى السر وتشرد صيف تلك السنة في لندن يكتب خطبتهُ الضافية التي اشرت اليها كما فعلت انا في هذا الصيف . وكان في اثناء ذلك يراقب اجتماعات الاندية والجمعيات العلمية ليرى ما يجدُّ فيها من الآراء الطريفة . وكان السر كارلس ليل والسر جوزف هوكر قد اودعا حينئذٍ في الجمعية الليتوسية رسالتين لم يظهر عليهما انهما تحتويان على شيء طريف ولكنهما كانتا في الحقيقة حافلتين بالآراء الطريفة وكان قد اعدهما رجلان

تبدو عليهما السذاجة التامة هما الفرد رسل ولس وشارلس دارون . على انهُ حبًّا بالانصاف لا بدَّ من الاعتراف بان هذين الرجلين كانا عارفين بمحتويات رسالتيهما وما قد يكون لها من الاثر في قلب بعض الآراء العلمية الشائعة حينئذٍ. فتناول اون هاتين الرسالتين ونظر فيما تحتويان عليهِ من الآراء وخرج من النظر فيهما بان ليس فيهما خطر ما على الآراء الشائعة حينئذٍ ولم يُشِر في خطابهِ شيئاً من القلق اذ مر بولس وداروين مرَّ الكرام ولم يشر اليهما بسوى ذكر طفيف مثبتاً بعبارات من كتابهِ ان الرأي القائل « بالانتخاب الطبيعي » كعامل قوي من عوامل التشوء خطر لهُ قبلاً

ولا يسعني الآن الاَّ التعجب لما اراهُ من الفرق الكبير بين نظرنا اليوم ونظر الجمهور الذي خطب فيهِ السر رتشرد اون منذ ٦٩ سنة في هذه المدينة . كان كل فردٍ من الجمهور الذي احتشد حينئذٍ لكي يسمع خطبة رآسته يعتقد اعتقاداً راسخاً ان الانسان خُلق خلقاً منفصلاً . ولكن جمهور العلماء الذين اتشرف بالخطابة فيهم الليلة ، والجمهور الاكبر الذي يصغي الى هذه الخطبة بواسطة التلفون اللاسلكي مستعدون لتصديق القول بان ارتقاء الانسان من رتبة الحيوانات التي تنطوي تحت النوع المعروف « بالبريمايتس » ووصولهُ الى مقامهِ الحالي هو نتيجة لتفاعل القوى البيولوجية التي كانت ولا تزال تؤثر في جسم الانسان ودماغهِ — يقولون ذلك متى اجتمعت لديهم ادلة كافية تثبت لهم ذلك ولو لم يكونوا من اتباع دارون الصميمين

***

ان تغيُّر الرأي في النظر الى اصل الانسان من عجائب القرن التاسع عشر . ولكي نتمكن من السير مع هذا التغير يجب ان نوجه نظرنا الى قرية دوَّن في هضبات كنت لنرى ماكان تشارلس دارون يفعل يوم كان السر رتشرد اون يلقي خطبتهُ المتممة في ليدس . جلس دارون في مكتبهِ يحاول كتابة الفصل الاول من كتاب جديد . ولكن ما من احد رأى ان نشر هذا الكتاب — اصل الانواع — سنة ١٨٥٩ اي بعد انقضاء ١٥ شهراً على خطبة اون سيحدث ثورة كاملة في نظرنا الى الاحياء ويكون فاتحة عهد جديد في اساليب التفكير — ندعوهُ بحق العهد الداروني — ونحن لا نزال في غمراتهِ الى الآن . فلقد كان دارون قائداً محنكاً من غير ان يعلم . فانهُ لم يبدأ معركتهُ الاولى الاَّ بعد ما قضى ٢٢ سنة يحشد لها من الحقائق المتنوعة ما يستطيع ان يدعم بهِ رأيهُ . وبعد ما فازت آراؤهُ فوزاً مبيناً على اثر نشرهِ لكتاب « اصل الانواع » بدأ

حالاً بعدُ كتاباً آخر لتعزيز نصره الاول فاصدر سنة ١٨٦٨ كتابهُ الذي عنوانهُ « التغير في الحيوانات والنباتات التي في دور التدجين » وهذا الكتاب كنز كبير من الحقائق والملاحظات البيولوجية. فلما بحثت قدمهُ تقدم الى هدفهِ الاساسي فنظر في اصل الانسان في كتاب نشرهُ سنة ١٨٧١ وعنوانهُ « تناسل الانسان » واتبعهُ سنة ١٨٧٢ بكتاب عنوانهُ « مظاهر العواطف في الحيوانات والناس » . كم من جندي باسل من جنود الحق حاول الاستيلاء على هذا الحصن العلمي من قبل فلم يفلح فلما اقبل عليهِ داروين القائد المحنك وفي جعبتهِ ذخيرة فتاكة دان لهُ صاغراً

ايخلد عمل داروين هذا ؟

قبل ان احاول الجواب عن هذا السؤال اريد ان انظر نظرة خاصة في كتابهِ « تناسل الانسان » . انهُ كتاب تاريخ — تاريخ الانسان — كتبهُ داروين على طريقة جديدة ابتكرها وجرى عليها . واستحسنوا لي الآن ان اضرب لكم مثلاً اشرح بهِ طريقة داروين هذه في كتابة التاريخ

نفرض ان عالماً من العلماء اراد ان يكتب تاريخاً لنشوء القرّاجة. فانهُ اذا سار على الطريقة المطروقة في كتابة التاريخ بحث عن كل ما دوّن عنها في الكتب والصحف المعاصرة وغير ذلك من المخطوطات التي يحتمل ان تشير اليها

ولكن اذا فرضنا ان هذا العالم لم يجد وقائع مؤرخة يبني عليها تاريخهُ بل وجد في متحف من المتاحف مجموعة من العربات والآلات القديمة في غير ما انتظام ولا ترتيب فماذا يفعل ؟ عليهِ ان يجري حينئذٍ على الخطة التي جرى عليها داروين في كتابة تاريخ الانسان . انهُ يستطيع ان يقارن هذه الآلات بعضها ببعض مقارنة منتظمة وبعد المقارنة يستطيع ان يستنبط علاقة احداها بالاخرى والترتيب الذي ظهرت فيهِ . ولكنهُ يتعذر عليهِ حينئذٍ ان يثبت التاريخ الذي ظهرت فيهِ انواعها المختلفة والمدة التي بقيت تستعمَل فيها. ان داروين نجح في كتابة تاريخ الانسان لانهُ سار على هذه الخطة الواقعية في اعداد مواده . انهُ جمع حقائق جمة من درسهِ لتشريح جسم الانسان والبحث في طبائعهِ ومقارنتهِ بينها وبين ما لاحظهُ في جسم كل حيوان آخر فيهِ ادنى شبه الى الانسان وما عرفهُ من طبائعهِ . وقف على كل ما عرف في عصرهِ من علم الاجنة وتكوينها ودوّن ما بدا لهُ من وجوه الشبه والاختلاف بين تكوّن جنين الانسان وتكوّن اجنّة الحيوانات القريبة منهُ . ونظر نظرة اهتمام الى تصرف السجة الجسمية الحية في احوال

المرض المختلفة او تحت تأثير الحقائق او حين تختلف احوال البيئة التي توجد فيها وكان عليه ان يستنبط تعليلاً لاجناس البشر. انهُ نظر نظراً تحليلياً منطقيًّا في كل هذه الامور فتمكن من ان يكتب تاريخ الانسان راجعاً بهِ الى العصور المتوغلة في القِدَم

لقد انقضت ٥٦ سنة منذ كتب ذلك التاريخ ، اجتمع في اثنائها لدى العلماء كثير من الادلة والحقائق الجديدة فصرنا نستطيع الآن ان نكتب كثيراً من الصفحات في تاريخ الانسان التي تعذرت كتابتها على دارون في عصره وقد تحتم علينا ايضاً ان نغير بعض التفاصيل التي ذكرها — ولكن القواعد التي بنى عليها دارون تاريخهُ لا تزال راسخة رسوخ الجبال — لا بل ان مركز دارون الآن من المتانة بحيث اعتقد انهُ لن يتزلزل

لماذا اقول وملء قولي الثقة واليقين بان مقام دارون ثابت لا ينالهُ منال ؟ اقول ذلك لاني اعلم ما حدث بعد وفاته سنة ١٨٨٢ . لقد اتيح لنا بعد ذلك ان نتتبع تاريخ الانسان بواسطة آثاره المتحجرة وادواته الحجرية الى ان بلغنا فاتحة ذلك العصر المعروف بعصر البلستوسين (من نحو مليون سنة) فوصلنا الى عهد في تاريخ الانسان يبعد عنا نحو ٢٠٠ الف سنة الى ٦٠٠ الف سنة . لا بل قد توغلنا اكثر من ذلك في احشاء التاريخ الى العصر الذي سبق عصر البلستوسين وهو عصر البليوسين. فان الدكتور اوجين ديبوى عثر على آثار متحجرة لما يُعرف الآن بالفرد الانساني واسمهُ العلمي « بيثكانثروبوس » في طبقات جيولوجية نُضدت في اواخر عصر البليوسين بجزيرة جاوى وكان ذلك بعد انقضاء ١٠ سنوات على وفاة دارون. وكشف المستر ريد موير في طبقات من عصر البليوسين ادوات حجرية غير دقيقة الصنع . فاذا صحَّ ما قالهُ دارون وجب ان تكون آثار الانسان اقرب الى الشكل الحيواني كما توغلت في القدم. وهذا ما ثبت لنا . ولكن اذا حسبنا ان بيثكانثروبوس بدماغهِ الحاوي لميزات الدماغ الانساني على صغره ، ممثلاً للبشر الذين عاشوا في عصر البليوسين تحتم علينا القول بان الشوء سار سيراً سريعاً حتى بلغ الناس ما بلغوهُ في هذا العصر

(التتمة في الجزء القادم)

—٥٠٥—